ابن الرومي
٢٢١ ـ ٢٨٣ هـ

لم يلق هذا الشاعر الكبير . لسوء حظه . باهتمام مؤلفي كتب الادب والسير والطبقات من القدامى . اذ لانجد له ترجمةً في طبقات الشعراء لابن المعتز . ولا في كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني . ولا في نزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري . ولا في معجم الادباء لياقوت الحموي .... ولعل اكثر من انصفه بترجمة موجزة لا تغني كثيراً الخطيب البغدادي وابن خلكان . وقد حظي في العصر الحاضر بأعمال طيبة من رجال فضلاء . وفي مقدمتهم عباس محمود العقاد في دراسة قيمة . والدكتور حسين نصار في تحقيق ديوانه بستة أجزاء .

سيرته :

عليُّ بن العباسِ بن جُريج أو جورجيس . المكنّى بأبي الحسن . والمعروف بابن الرومي . ولد في بغداد بالجانب الغربي لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ للهجرة من أب رومي . وقد أشار الى ذلك في شعره . فقال :(٥١٧)

ونحن بنو اليونان من قومٍ لنا حجىً ومجدٌ وعيدانٌ صلابُ المعاجمِ

وقال في تورية لطيفة وهو يداعب فتاة :(٥١٨)

ورومية يوماً دعتني لوصلها ولم أكُ من وصلِ الأغاني بمحروم
فقالت : فدتك النفس ماالأصلُ ؟ انني أريدُ وصالاً منكَ . قلتُ لها : رومي

وليس غريباً ان يكون هذا الشاعر من أصل رومي ، فان كثيراً من الاقوام أسلموا وامتزجوا بالعرب . ولاسيما في العصر العباسي . وكانت أمه اعجمية ايضاً تسمّى حسنة بنت عبدالله السَّجزيّ كما ذكر المرزباني .(٥١٩) وهي امرأة تقيّة صالحة . طيبة المعشر . تطعم الايتامَ وتجود على الجيران بمطاعمها . ومن شعر ابن الرومي فيها بعد مماتها :(٥٢٠)

---

(٥١٧) ديوانه ٦ : ٢٣٧٦

(٥١٨) الكشكول ١ : ١٣٤ ، ولم يرد البيتان في ديوانه المطبوع .

(٥١٩) معجم الشعراء ص ١٤٥

(٥٢٠) ديوانه ٦ : ٢٣٠٠

أقولُ . وقد قالوا : أتبكي كفاقد رضاعاً وأينَ الكهلُ : من راضع الحلمْ ؟
هي الأم . يالناس جُرّعت ثكلها ومن يبكِ أمّاً لم تُذمْ قطُّ . لا يُذمّ

فقد ابن الرومي والده وهو صغير . وتعهّدتهُ أمُّه وأخوه الاكبر ويسمى محمداً كان يعمل في دواوين الدولة . ولم يلبث ان توفي اخوه ولم يبلغ الثلاثين . وتوالت عليه الشدائد . فماتت أمه . ثم تزوج وأنجب أطفالاً . ولكن القدر لم يمهله بهم . فماتوا جميعاً حتى زوجته . فحزن عليهم أشدّ الحزن .

أمّا دراسته وعلمه وثقافته فلم تذكر المصادر شيئاً عنها . ويبدو أنَّ الكتاتيبَ قد أعطته قسطاً من علوم اللغة العربية وآدابها . وحينما اصبح يافعاً أخذ يختلف الى حلقات العلماء في المساجد . ويتابع الكتب ويقرؤها ويستخلص المعارف منها . وقد أشار أبو العلاء المعري الى أنه « كان يتعاطى علمَ الفلسفة . واستعار من أبي بكر ابن السراج كتاباً »(٥٢١) وهذا الخبر يدل على شغفه بالمطالعة واستنباط العلوم من الكتب حتى الفلسفة . التي ساهمت في خلق الكثير من مميزات شعره التي سنراها فيما بعد

وكان غريبَ الاطوار . سوداويَّ المزاج . انطوائيَّ النفس . كثير التطير والظن والقلق . ضعيفَ الأعصاب . شديد الخوف . لا يستقرُّ على حالة . تراه يمدح شخصاً ثم لا يلبث ان يهجوه . حتى قال عبيدالله بن سليمان بن وهب وهو يوصي ابنه الوزير القاسم : « أرى مايسوءني ولا يسرني . أرى رجلاً صحيح الشعر . سقيم العقل . ومثل هذا لاتؤمنْ بوادرُه ؛ وأقلُّ غضبة يغضبها ثبقي في اعراضنا مالا يغسله الدهرُ . والرأي ابعاده »(٥٢٢) . وهكذا جعلته هذه الصفات رجلاً غير محظوظ كأقرانه من الشعراء الذين وجدوا قبولاً حسناً عند الخلفاء وأعوان الدولة .

وفي موته رأيان . الاول . انه مات اثر مرض . والثاني : ان الوزير القاسم بن عبيدالله دسّ له السمَّ فمات ليتخلص من لسانه . وهذا ماذهب اليه أكثرُ المؤرخين . وكانت وفاته لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ٢٨٣ للهجرة ودفن بمقبرة باب

---

(٥٢١) رسالة الغفران ص ٤٧٧
(٥٢٢) جمع الجواهر ص ٢٩٢

البستان في الجانب الشرقي من بغداد ورويت له أشعارٌ قالها في نزعه . منها مارواه ابو حيان التوحيدي عن احد الرواة قوله : دخلنا على ابن الرومي في مرضه الذي قضى منه فأنشدنا :

ولقد سئمتُ مآربي ... فكأنَّ طيبها خبيثُ
الاّ الحديثَ فانّهُ ... مثلُ اسمه أبداً حديثُ (٥٢٣)

شعره :

برزت موهبة ابن الرومي في وقت مبكر . فقد صاغ ابياتاً في هجاء غلام عباسي وهو لايزال في الكتّاب ،(٥٢٤) ثم استمر في النظم حتى اصبح له ديوان في حجم كبير . حوى أغلب موضوعات الشعر المعروفة من مديح . وهجاء . ورثاء . ووصف . وغزل . وعتاب . وشكوى . وحكم ...

عاصر ابن الرومي عدَّة خلفاء . ولكنه لم يمدح منهم احداً مدحاً مباشراً الا الخليفة المعتضد ، ويعزو أحد الباحثين ذلك الى « سوء طالعه في قصور الملوك . وجبنه عن اقتحام اجوائهم . واستهانتهم به لضآلة شخصه . وميوعة اسلوبه . المتجافي عن القعقعة والجلباب »(٥٢٥) . ولا نظنُّ هذا هو السبب الرئيس . ولعل الواقع السيء الذي كانت عليه الخلافة زمن المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والدسائس الكثيرة في قصورهم نفَّرته عن اجوائهم وابعدته عن ابوابهم . والبيتان الآتيان في مدح المعتضد يدلان على الاستبشار بعهد جديد :(٥٢٦)

هنيئاً بني العباس ان امامكمْ ... امام الهدى والباس والجود : أحمذ
كما بأبي العباس أنشيء ملككمْ ... كذا بأبي العباس أيضاً يجدّذ

ان لابن الرومي ممدوحين كثيرين . يتجاوزون الاربعين . من وزراء . وكتاب . وحجّاب . وحكّام . وقوّاد . وتجّار . واصحاب جاهٍ ونفوذ ... ومع هذه الكثرة فانه لم يحظ بنوالٍ كبير منهم . وربما يتعلّقُ ذلك بابن الرومي نفسه . فانه لم يكن دقيقاً

---

(٥٢٣) الامتاع والمؤانسة ١ : ٢٧ وينظر الديوان ١ : ٢٩٧ .
(٥٢٤) ينظر ديوانه ٢ : ٥٦٢ .
(٥٢٥) ابن الرومي في الصورة والوجود ص ٢٨٢
(٥٢٦) ديوانه ٢ : ٦٦٠ .

في الدخول الى نفوس الممدوحين وتشخيص مواطن الفضائل والمناقب التي يرتاحون لها وينتعشون لسماعها كما كان يفعل أكثر شعراء عصره . فلو نظرنا مثلاً في قصيدته البائية في مدح احمد بن ثوابة التي تجاوزت مئة وثمانين بيتاً لما وجدنا فيها الا ابياتاً قليلة في موضوع المدح الخالص مثل قوله :(٥٢٧)

بوجهك أضحى كلُّ شيء منوَّراً وأبرز وجهاً ضاحكاً غير قاطبِ

وله شعر كثير في الهجاء . صبَّ فيه حقده وغضبه على كثير من الناس . وجردهم من انسانيتهم بأسلوب ساخر لاذع . وألصق بهم عيوباً ونواقص مشينة . وصوَّر بعضهم تصويراً مضحكاً يكادُ يكون منفرداً فيها . وقد عدَّهُ العقاد من أشهر هجائي القرن الثالث مع الشاعر دِعبل الخزاعي .(٥٢٨) مثل قوله وهو يفضّل الكلب على المهجو :(٥٢٩)

والكلبُ وافٍ وفيكَ غدرٌ ففيكَ عن قدره سفولُ
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي ولا تصولُ
وأنت من أهلِ بيتِ سوءٍ قصَّتُهم قصةٌ تطولُ
وجوههم نلورى عِظاتٌ لكنَّ أقفاءهم طبولُ(٥٣٠)

وأوقف ابن الرومي قسطاً من شعره على المرأة . ووصفها وصفاً بديعاً . وأضفى عليها ألوان الطبيعة وظلالها . واحياناً لولا القرينة لما أدركت أنه يصف امرأة . مثل قوله في بستان المغنية .(٥٣١)

بستانُ : ياحسرتا على زهرٍ فيكِ من اللهو بل على ثمرِ
بستانُ : لم يُستعر لكِ اسمك يا بستانُ لذاتنا ولم يُغرِ

واسلوبه في الغزل شفاف ورقيق لا يخدش السمع مثل قوله وهو يرد على اولئك الذين يلومون العاشقين . لأنَّ لومهم يغريهم بزيادة الحبّ والامعان فيه . كما تُغري الريحُ النارَ بشدَّةِ الاحراق :(٥٣٢)

---

(٥٢٧) ديوانه ١ : ٢٢٣ .
(٥٢٨) ابن الرومي ، حياته من شعره ص ٢٣٢
(٥٢٩) ديوانه ٥ : ٢٠٠٤
(٥٣٠) اي اقفاؤهم تصلح للضرب والصفع عليها كالضرب على الطبول .
(٥٣١) ديوانه ٣ : ٩١٨

لاتُكثرنَ ملامة العُشاقِ فكفاهم بالوجدِ والأشواقِ
انَّ البلاءَ يطاقُ غيرَ مضاعفٍ فاذا تضاعفَ كانَ غيرَ مُطاقِ
لاتُطفئنَّ جوىً بلومٍ. انَّه كالريحِ تُغرى النارَ بالإحراقِ
ما للمحبِّ اذا تفاقمَ داؤهُ غيرُ الحبيبِ يزورُهُ من راقِي

وكانت له عبقرية فذّة في وصف المرئيات والمعنويات . بما أتيح له من دقة التصوير وبراعة التشخيص وحسن التعبير . فقد وصف الرياض والازهار والثمار والأطيار والحيوان . كما وصف أنواع الطعام ومجالس المنادمة والمغنيات . ومظاهر العمران . والطبائع والعادات والعاهات . واصحاب المهن والحرف ... مثل قوله في وصف الخبّاز ومهارته في صنع الخبز بسرعة فائقة تشبه اللمحة الخاطفة :(٥٣٣)

ما أنس لا أنسَ خبّازاً مررتُ به يدحو الرُّقاقةَ وشْكَ اللمحِ بالبصرِ
ما بينَ رؤيتها في كفِّه كرةً وبينَ رؤيتها قوراءَ كالقمرِ
الّا بمقدارِ ماتندى دائرةً في صفحةِ الماءِ يرمى فيه بالحجرِ
واليك هذا المشهد الرائع الذي يُصوّرُ الشمسَ ساعة غروبها وتوديعها للطبيعة :(٥٣٤)

اذا رَنَقتْ شمسُ الأصيلِ ونفّضتْ على الأنقِ الغربيِّ ورْساً مُذعذعاً(٥٣٥)
وودّعتِ الدنيا لتنقضي نحبها وشوّلَ باقي عمرها فتشعشعا (٥٣٦)
ولاحظتِ النّوارَ وهي مريضةٌ وقد وضعت خدّاً الى الارض أصرعا
كما لاحظت عواده عينَ مُدنفٍ توجع من أوصابه ما توجّعا

---

(٥٣٢) ديوانه ٤ : ١٦٦٢
(٥٣٣) ديوانه ٣ : ١١١٠
(٥٣٤) ديوانه ٤ : ١٤٧٥
(٥٣٥) رنقت : يقال رنق الطائر اذا وقف صافاً جناحيه لا يمضي ، وترنيق الشمس مستعار من ترنيق الطائر وهي ميلها الى المغيب ودنوها من الافق . الورس : نبات اصفر . مذعذع : محرك ، لعله يريد به اهتزاز الأشعة في بصر الناظر .
(٥٣٦) النحب : النوم . شول : نقص ، قل ، وشولت الناقة : جفت البانها . تشعشع : يقال تشعشع الشهر اي بقي منه قليل .

وظلّتْ عيونُ النورِ تخضلُّ بالندى كما اغرورقت عين الشُجيّ لتدمعا
يراعيـنـهـا صُوراً الـيـهـا روانـيـا ويلحظنَ ألحاظاً من الشجو فُشّعا(٥٣٧)
وبـيـن اغـضـاءُ الـفـراقِ عـلـيـهـمـا كأنّهما خلا صفاء تودّعا(٥٣٨)

ماأجمل هذه اللوحة وأروعها ، انها رُسمت بريشة دقيقة مظهرة شمس الأصيل وهي مائلة نحو الأفق استعداداً للرحيل تاركة الأرض الخضراء بزروعها وورودها حزينة متوجعة بعد مودة ومحبة ولقاء.

وكان ابن الرومي ينقلب في ساعاتٍ من حياته الى انسانٍ متفجع يتنزّى جُرحاً ويتفجرُ ألماً وحزناً بعد أن يرصد الدهر سهامه له في أسرته واحداً بعد الآخر . ويُقدّمُ فيهم شعراً حزيناً . ولاسيما في ابنه الأوسط محمد . اذ نراه يبكيه بأشجى الحان الابوه المفجوعة في فلذة الكبد ومصيبة الولد . مثل قصيدته الدالية التي لاتقل روعةً من قصيدة ابي ذؤيب الهذلي في عينيته المشهورة التي رثى فيها ابناءه السبعة الذين ماتوا الاّ طفلاً . قال ابن الرومي من قصيدة تتجاوز اربعين بيتاً :(٥٣٩)

بكاؤكما يشفي وان كان لايجدي فجودا فقد أودى نظيرُكما عندي
بني الذي أهدته كفايَ للثرى فياعزّةَ المُهدى وياحسرةَ المهدي
ألا قاتـل الله الـمـنـايا ورمـيـهـا من القومِ حباتِ القلوبِ على عمدِ
توخى حمامُ الموتِ أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقدِ
على حين شمتُ الخيرَ من لمحاتِهِ وآنستُ من افعاله آية الرشدِ
طواهُ الرّدى عنّي فأضحى مزارُهُ بعيداً على قربٍ قريباً على بعدِ(٥٤٠)
واني . وان مُتعتُ بابني بعده لذاكره ماحنّتِ النيبُ في نجدِ(٥٤١)

---

(٥٣٧) يراعينها : يلاحظها . صوراً : موائل . روانيا : مديحات نظرهن .
(٥٣٨) بين : تبين اغضاء الفراق : دنوه
(٥٣٩) ديوانه ٢ : ٦٢٤
(٥٤٠) يقول : ان ابنه صار بعيداً على الرغم من قرب مكان دفنه ، قريب المكان ولكنه بعيد المنال الا بالذكريات
(٥٤١) النيب : جمع ناب وهي الناقة .

واولادنا مثل الجوارح ايُّها فقدناه كان الفاجع البيّنَ الفقدِ
لكلٍ مكانٌ لا يسدُّ اختلاله مكانُ أخيه في جزوع و لا جلدِ(٥٤٢)
هل العين بعد السَّمع تكفي مكانَه ام السمعُ بعد العينِ يهدي كما تهدى ؟

ومن شعره الرثائي المشهور قصيدته الطويلة التي بكى فيها على مدينة البصرة الفيحاء التي ضربها الزنج بقساوة وعنف. وخربوها. وأذلّوا أهلها. وعصفوا بمنجزات الحضارة فيها سنة ٢٥٧ للهجرة في خلافة المعتمد. وكانت هذه الحادثة من أسوأ الحوادث التي وقعت على هذه المدينة. وجاءت قصيدة ابن الرومي التي تردّدت بين الغضب والحزنِ تشرح هذه المأساة الدامية التي أذهلت الناس آنذاك. منها قوله :(٥٤٣)

لهفَ نفسي عليكِ ايتها البصـ ـرةُ لهفاً كمثلِ لهبِ الضرامِ
لهف نفسي عليكِ ياقبّة الاسـ ـلامِ لهفاً يطولُ منه غرامي
كم أخٍ قد رأى أخاهُ صريعاً تَربَ الخدّ بين صرعى كرامِ
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيه وهو يعلى بصارمٍ صمصامِ
كم رضيعٍ هناك قد فطموه بشبا السَّيف قبل حينِ الفطامِ
كم فتاةٍ مصونةٍ قد سبوها بارزاً وجهها بغير لثامِ
صبحوهم فكابد القومُ منهم طولَ يومٍ كأنّه ألفُ عامِ

ولابن الرومي شعر لطيف في الحنين الى الأوطان. والشكوى والعتاب. والشيب والشباب. والحكمة والمثل. لم يكن متخلفاً فيه ولا مقصراً. بل يبلغ في بعضه مرتبةً لا نظير لها. مثل قوله :(٥٤٤)

ولسي وطنٌ آليتُ ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالكا
فقد ألفتهُ النفس حتى كأنّه لها جسدٌ انْ بانَ غودرْتُ هالكا
وحبّبَ أوطانَ الرجالِ اليهم مآربُ قضّاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم عدود الصبا فيها فحنوا لذلكا

---

(٥٤٢) الجزوع : هو الكثير الجزع ، والجلد : هو الصبور على الحوادث .
(٥٤٣) ديوانه ٦ : ٢٣٧٧ .
(٥٤٤) ديوانه ٥ : ١٨٢٥ .

خصائص شعره :

عُرف عن ابن الرومي بكثرة النظم . واطالة النَفس . حتى يصل في بعض قصائده الى ثلاث مئة بيت تقريباً وقد ضاع جزءٌ من شعره كما يرى المستشرق روفون جست . ويقول في المتبقي منه : « ونستطيع أن نقدره بما لا يقل كثيراً عن ضعف شعر البحتري . وثلاثة أضعاف أو اربعة أضعاف شعر أبي تمام »(٥٤٥)

انّ أميز خصائص شعره التعمق في المعاني . والتحليل . والاستقصاء . واستعمال المنطق . قال المرزباني هو « أشعر أهل زمانه بعد البحتري . وأكثرهم شعراً . وأحسنهم اوصافاً . وابلغهم هجاءً . وأوسعهم افتناناً في سائر اجناس الشعر وضروبه وقوافيه . ويركب من ذلك ماهو صعب متناوله على غيره . ويلزم نفسه مالا يلزمه . ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجمل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ »(٥٤٦) انه كان يدخل الى اعماق المعاني بفكره الثاقب ويستخرج منها النوادر والدرر . وقد عرف له هذا ابن خلكان فقال : « صاحب النظم العجيب . والتوليد الغريب . يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة » (٥٤٧) .

وكان ابن الرومي صاحب ثروة لغوية كبيرة . يعرف دقائقها وأسرارها . ويحسن اختيار الألفاظ والعبارات منها . أما المحسنات اللفظية فقد استعان بها في تحسين صوره . ولكنه لم يسرف فيها اسراف ابي تمام .

ومع براعته . ودقة معانيه . وبديع صوره وأخيلته لم يسلم من النقد . فطه حسين يقول : « طول وقوف ابن الرومي عند المعاني يضطره الى أن يطيل النظر فيها . فهو يتصرفّ فيها ويعبثُ بها أكثر مما كان ابو تمام يتصرُف في معانيه » (٥٤٨) ان كلّ شاعر مهما كان مقتدراً ومتمكناً من ناحية القريض لا بد ان تقع في شعره هنات يؤاخذ عليها . وقد أدرك ابن الرومي ذلك . وعرف ان النقد سيوجه اليه . ولذلك شبه شعره بالشجر .ي يرى فيه اللحاء والخشب والشوك والثمر : (٥٤٩)

---

(٥٤٥) ابن الرومي ، حياته وشعره ص ٨١ .
(٥٤٦) معجم الشعراء ص ١٤٥ .
(٥٤٧) وفيات الاعيان ٣ : ٢٥٨ .
(٥٤٨) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٨ .
(٥٤٩) ديوانه ٣ : ١٠٢٩ .

قولا لمن عاب شعرَ مادحه ... أما ترى كيف رُكّب الشجرُ ؟
رُكبَ فيه اللِّحاءُ والخشبُ الـ ... ـيابسُ والشوكُ بينه الثمرُ
وكان أولى بأنْ يهذّبَ ما ... يخلقُ ربُّ الأرباب لا البشرُ
فلم يكنْ ذاكَ بل سواه من الـ ... ـأمرِ لشيءٍ جرى به القدرُ
والله أدرى بما يدبرهُ ... منا . وفي كلّ ماقضى الخيرُ
فليعذر الناس مَنْ أساءَ ومن ... قصّرَ في الشعر . إنّه بشرُ
مطلبه كالمغاص في درك اللجّـ ... ـة من دون ذرها خطرُ
ولْيذكروا أنه يكدُّ له الـ ... ـعقلُ وتنضى في قرضهِ الفكرُ
وفيه ما يأخذ التخيرُ من ... غالٍ ثمينٍ وفيه ما يذرُ
وليس بدٌّ لمن يغوص من الـ ... ـجرفِ لما يُصطفى ويحتقرُ